

الفصل الأول

فتح العرب الأندلس

obeikandi.com

وصلت الفتوح العربية فى شمال أفريقيا إلى ذروتها تحت قيادة موسى ابن نصير فى عام ٧٠٩م، فختمت المرحلة الأفريقية، ومن ثم بدأ الإعداد للمرحلة التالية.

كانت إسبانيا فى ذلك الحين، أى إلى الفتح العربى دولة مسيحية اسمياً، فقد كانت آخر إقليم فى نطاق الإمبراطورية الرومانية متمسكة بالوثنية، ويبدو أنه تحت حكم القوط، لم يبذل جهد يذكر لتحويل أهلها إلى النصرانية.. وكان سكانها قد تحملوا الكثير من العنف وأقسى ألوان الظلم، وعاشوا تحت ظل العبودية والإقطاع والفقر. ولذلك كان من اليسير عليهم، فى تلك الظروف التعيسة، أن يتلقوا دعوة الإسلام، ويرحبوا ترحيباً حاراً بالقادمين الجدد، كما فعل أهل مصر البيزنطية حينما استقبلوا المسلمين تحت قيادة عمرو بن العاص.

كان القوط يحكمون إسبانيا منذ عام ٤١٨م حتى جاءها العرب عام ٧١١م. وكان مقر بلاط ملوكهم فى تولوز، أما قاعدتهم فى إسبانيا فكانت طليطلة. ويمكن القول أنه حتى القرن السادس، لم يكن حكم القوط فى إسبانيا قد دعم تماماً. وكان يتولى الملك العرش بطريق الانتخاب. وبعد أن استقرت الكاثوليكية فى البلاد تقاسم الحكم الملوك ورجال الكهنوت على ما يبدو. وكان اليهود فيها لا يعاملون بالحسنى بالرغم من أنهم كانوا من دعائم

وصلت بعثة يوليان إلى طارق بن زياد حاكم طنجة المسلم، وبعد أن تحدث مع المبعوثين، أرسلهم إلى رئيسه موسى بن نصير في القيروان. وسرعان ما أذن له الخليفة الوليد بن عبد الملك بإعداد حملة عسكرية لفتح إسبانيا. فتم تجهيزها من العرب والبربر.

وفي عام ٧١٠م خفت حملة استكشافية مؤلفة من البربر لريادة المنطقة التي سوف تنزل فيها الحملة، وللتعرف على أحوال مسالكها وطبيعة بلادها. والمعروف أن هذه الطليعة كانت بقيادة طريف. وفي العام التالي أى فى ٧١١م، كان القائد طارق وبصحته يوليان الرومى قد نزلا إلى البر الإسبانى عند جبل طارق، ثم اتجه الجيش من الجنوب إلى الشمال فى خط مستقيم تقريباً حتى استولى على طليطلة (جنوب غرب مدريد) فى سبتمبر ٧١١م، وبعد طليطلة استمر طارق فى مسيره فى اتجاه شمالى شرقى حتى بلغ ألكالادانيارس (قلعة عبد السلام)، وهناك أتاها أمر من رئيسه موسى بن نصير بأن يعود إلى طليطلة، وينتظره فيها.

خف موسى من الجنوب إلى أشبيلية، فاستولى على باجة ويابرة، ثم على ماردة بعد قتال وحصار طويلين. وكان لذريق قد نجا من معركة وادى لكّة، ولجأ إلى حصون قرب ماردة. وهناك تقدم لقتال موسى، فهزم وقتل. ومن ماردة تقدم موسى، فاحتل طلييرة (تالافيرا دى لارينا) جنوبى غربى طليطلة. وفى ذلك المكان لقيه طارق وأسلم له القيادة. وفى ذلك الحين أعلن موسى أن الحاكم الشرعى لإسبانيا هو خليفة المسلمين فى دمشق. ثم سارا معا، ففتحا سرقسطة، واتجها شمالاً بغرب مع نهر أبرو، ففتحا قلهرة، وبنبلونة، ثم أماية - فاستدرجا، ثم لك (لوجو)، ثم أبيض (أوفييدو)، ثم



العرب في حصار قرطبة يتسلقون جدرانها ٧١٢ م

خيخون، فأتما بهذا فتح إسبانيا. وتركوا حامية قرب خيخون، وعادا إلى طليطلة، ورجعا منها بأمر من الخليفة الأموي إلى أفريقيا، ثم دعيا للمثول بين يديه في دمشق (٧١٤).

تولى قيادة الجيش بعدهما عبد العزيز بن موسى (الذي أصبح والياً على الأندلس نيابة عن أبيه). فأتم ما بقى من شرق إسبانيا وفي غربها، فاستولى على مالقا وقطاع البيرة - غرناطة اليهود، ووقعت في قبضته لبلة (نيبيلا)، ويابرة (ايفورا)، وشتترين (سانتا ريم) في البرتغال.

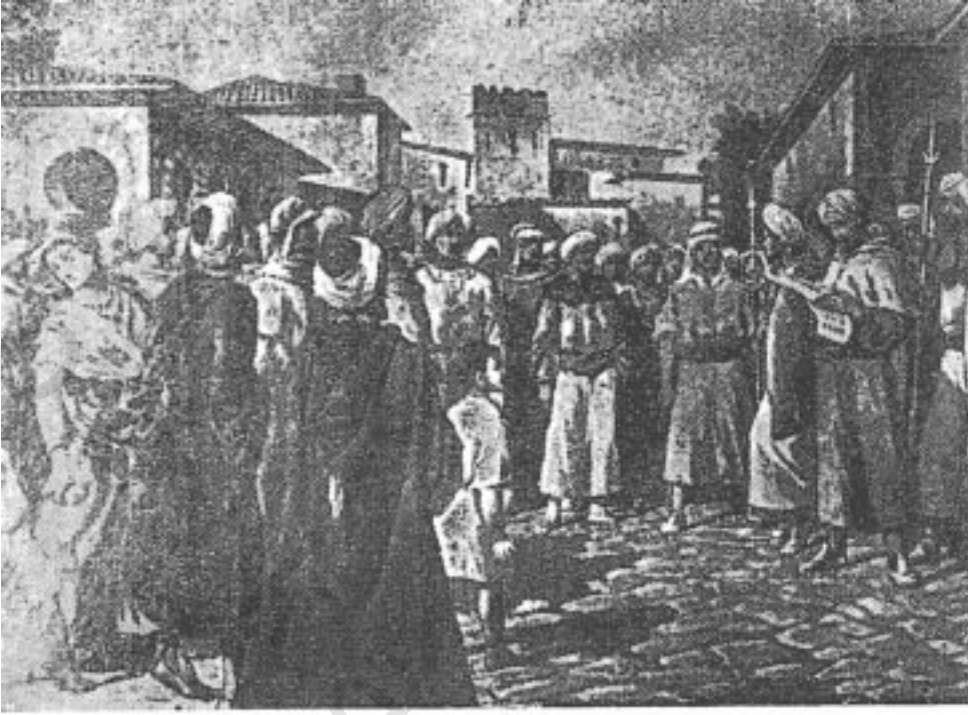
هذه مرحلة الانطلاق الأول فى موجة الفتح العربى للأندلس . لم تستغرق سوى أربع سنوات وعدة أشهر (٧١١ - ٧١٥)، وصل العرب فيها إلى جبال البرانس الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا . وقد استعاد الإسبان إقليمهم هذا الذى احتله العرب فى سنوات قلائل - استعادوه فى ثمانية قرون! لقد كان هذا الفتح معجزة من المعجزات .

وعلى أى حال، نقول إنه فى أعقاب فترة الفتح، جاءت فترة أخرى امتدت قرابة أربعين سنة (٧١٥ - ٧٥٥) كان الأندلس فى خلالها ولاية تابعة لدمشق مركز الخلاف الأموية . ومع ذلك فقد انحسر ملك العرب خلاله قليلاً .

ثم أقبل إلى الأندلس (٧٥٥) عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)، وأنشأ إمارة قرطبة عام ٧٥٦، بعد رحلة شاقة جاب فى خلالها أقطار الشمال الأفريقى حتى وصل إلى سبتة . ومنها أوفد مساعده بدر ليكشف عن أحوال الأندلس وليرى إذا كان سيلقى التأييد من الزعماء العرب أم أنهم سيصدونه .

ومن حسن الطالع أن مهمة بدر كللت بالنجاح، فأسرع بالاتصال بالأمير عبد الرحمن للقدوم إلى الوطن الجديد . وبعد أيام رست سفينة عند مالقة حيث كان بعض الزعماء فى استقباله . وفى العام التالى (٧٥٦) حصل على ولاء معظم القادة من العرب والبربر .

هكذا قدر بعد مرور ست سنوات على سقوط الخلافة الأموية فى دمشق، أن نهض أحد أفراد الأسرة الأموية نفسها - بعد أن قضى العباسيون عليها - فشىد صرح ملك جديد دام حوالى ٢٥٠ سنة كانت قاعدته فى قرطبة ثم أشبيلية فغرناطة .



تسليم طليطلة لعبد الرحمن الثاني عام ٨٣٨ م

لم يتخذ عبد الرحمن (٧٥٥ - ٧٨٨) لنفسه لقب الخلافة، بل إنه اكتفى بلقب السلطان أو الأمير. أما لقب الخليفة، فقد اتخذه عبد الرحمن الثالث بعد مرور مائتي سنة تقريباً على وصول سميّه الأول. ونهض بعد عبد الرحمن الأول سبعة أمراء يعرف عنهم بأنهم خيرة من عرف العرب والمسلمون من حكام - كفاية وعدلاً وحزمًا، كان منهم هشام بن عبد الرحمن (٧٨٨ - ٧٩٦)، فالحكم بن هشام (٧٩٦ - ٨٢١)، فمحمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ - ٨٨٦)، والمنذر بن محمد (٨٨٦ - ٨٨٨)، وعبد الله بن محمد (٨٨٨ - ٩١٢)، ثم تولى عبد الرحمن الثالث، المعروف بالناصر، ويعتبر أعظم الحكام الذين عرفتهم إسبانيا المسلمة. وأصبحت قرطبة في أيامه درة العالم وكعبة

الحضارة. وكان عبد الرحمن الناصر أول من اتخذ لقب «ال خليفة» (٩٢٩م) وتسمى بـ «الناصر لدين الله». ومنذ ذلك الحين أصبح فى العالم الإسلامى ثلاث خلافات: العباسية فى بغداد، والفاطمية فى القاهرة، والأموية فى قرطبة.

ولما توفى عبد الرحمن (٩٦١م)، تولى الحكم من بعده الحكم بن عبد الرحمن المعروف بالمستنصر (٩٦١ - ٩٧٦)، ثم هشام بن الحكم المعروف بالمؤيد (٩٧٦ - ١٠٠٨) ولما كان غلاماً صغيراً حينما تولى الأمر، سيطر واحد من رجال الدولة وهو محمد بن أبى عامر على الحكم، واستطاع أن يجعل من نفسه الحاكم الفعلى، وتلقب بالمنصور. وقد تمكن من توسيع رقعة الإسلام فى الأندلس^(١) فتخطت نهر دويرة، وارتفعت إلى شماله عند نهر المينو، وضمت جزءاً كبيراً من إمارة نافار (نبرة).

ولما مات المنصور خلفه اثنان من أبنائه، ثم أخوه عبد الرحمن. وفى أيام هذا الأخير ثار الأندلسيون وبدأت فتنة أهلية، وتعاقب على عرش الخلافة فى أثنائها عدد من الخلفاء من بنى أمية أولاً، ثم من أسرة تعرف ببنى حمود، ثم استردها بنو أمية، حتى إذا تولى آخر بنى أمية الأندلسيين، ويسمى هشاماً المقعد، كان أهل قرطبة قد سئموا الفوضى، فاجتمع رؤساؤها وقرروا إلغاء الخلافة الأموية سنة ١٠٣١م. ومن ثم تقسمت البلاد إلى إمارات مستبدة تعادى كل منها الآخر، وبدأ فى تاريخ الأندلس ما يعرف بعصر ملوك الطوائف.

(١) د. مؤنس: رحلة إلى الأندلس، ص ٢٥ - ٢٦.

ملوك الطوائف

فى أثناء ضعف خلافة قرطبة، انتهز ملوك النصارى فى الشمال هذه الفرصة، فوسع كل منهم سيادته على حساب المسلمين. فانحدرت حدود الأندلس إلى نهر تاجة، فيما عدا الناحية الشرقية، إذ ظلت حدود الأندلس، هناك فى حوض نهر إبرو، أى أن الأندلس لم يعد يشمل إلا نصف شبه الجزيرة.

فى عام ١٠٨٥ استولى ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون على أكبر ممالك الطوائف، وهى طليطلة. ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الأندلس يشمل إلا ثلث شبه الجزيرة فقط!

أدرك الأندلسيون الخطر فاستنجدوا بأهل المغرب، وكانت دولة المرابطين قد نهضت فى شمال أفريقيا، وسرعان ما أقبل رئيسها يوسف بن تاشفين لنجدة ملوك الطوائف المنقسمين على بعضهم، فهزم الملك ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة (٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م)، وكان من معارك المرابطين الظافرة فى الأندلس، معركة أقليمش (٣٠ مايو ١١٠٨م)، وافرغة (يونيو ١١٤٣م). وأبطال تلك المعارك يوسف بن تاشفين فى الزلاقة، وتميم ابنه فى أقليمش، ثم يحيى بن غانية فى افرغة!

المرابطون:

وكان المرابطون قد نشأوا فى صنهاجة ثم قامت دولتهم أولاً بالمغرب وبرز فيها يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش. ولما استنجد به ملوك الطوائف ووقف على ضعفهم ألحق بلادهم بمملكته وعاد إلى فاس واتخذها

عاصمة ملكه . ولما مات (١١٠٦م) خلف دولة امتدت من السنغال إلى نهر الأيبر، وفن الأطلسى إلى الجزائر.

الموحدون:

وقعت غرناطة تحت حكم المرابطين بعد إزالتهم أسرة الزييين، فنصب هؤلاء من قبلهم الحكام من عام ٤٨٣هـ = ١٠٩٠م إلى ٥٥١هـ = ١١٦٦م حينما سقطت فى يد الموحيدين . وكان أول وال مرابطى فى غرناطة اسمه أبو محمد عبد العزيز، وجاء من بعده الأمير يحيى بن وسينو .

وعلى مر الأيام ضعف أمر المرابطين، وقام عليهم الموحدون فى المغرب، فثار نفر من الأندلسيين، وعادت الفتنة، وفى أثنائها استولى ملك أراغون على الثغر الأعلى، وقاعدته سرقسطة سنة ١١١٨، بهذا أصبح الأندلس لا يشمل سوى ربع شبه الجزيرة!

وفى عام ١١٥٠ عبر الموحدون إلى الأندلس ليعملوا على الحفاظ على ما بقى منه، ونجحوا فترة قصيرة، فانتصروا على المسيحيين فى معركة الأرك (١٩ يوليو ١١٩٥م)، ثم لم يلبثوا أن انهزموا فى معركة العقاب (لاس نافاس دى تولوز - ١٧ يوليو ١٢١٢م)، وتعتبر هذه السنة نهاية حكمهم الفعلى فى الأندلس .

وفى خلال الصراع بين المرابطين والموحيدين، سقطت عدة مدن إسلامية فى أيدي النصارى، منها: طرطوشة (١١٤٨)، ولاردة (١١٤٩)، وقلعة رباح (كالاترافا) (١١٥٧)، والمنطقة التى تعرف حالياً بالبرتغال (١١٥٧ - ١١٧٧) ثم جيان (١٢٣٢) وفى عام ١٢٣٦ سقطت قرطبة عاصمة الأندلس كله، ثم

بلنسية (١٢٣٨)، ثم مرسية، فكل شرق الأندلس حتى مالقة (١٢٤١)، ثم سقطت أشيلية (١٢٤٨)، وتبعته شذونة، وأركش وقادش!!

وفى وسط هذه المحن القاسية المتتالية، قاوم الفقهاء والمجاهدون هذا السيل النصرانى - تماماً كما فعل زملاؤهم فى المشرق أمام ضربات الصليبيين فى البلاد المقدسة. فاستشهدوا فى سبيل الله. وكان منهم: أبو على الصدفى، وأبو الربيع سليمان بن سالم وكانت سنه قد تخطت السبعين، وظل فى المعركة يجاهد حتى أكلته السيوف، ومنهم محمد بن يوسف بن هود، البطل المقدام الذى قطع الأندلس من بلنسية إلى ماردة والسيوف فى يده حتى استشهد فى قفار المنشا على مقربة من حصن صغير، كان يعرف بالبسيط^(١).

يذكر حسين مؤنس فى «رحلة الأندلس» أنه فى وسط هذا الطوفان، استطاع فارس عربى أندلسى هو محمد بن الأحمر أن يعتصم فى غرناطة وما حولها حتى وادى آش فى الغرب، ومالقة فى الشرق، ثم أنشأ إمارة عربية تجمعت فيها جماعات من المهاجرين المسلمين من البلاد التى سقطت، وحصن هذه النواحي تحصيناً منيعاً، واستطاع أن يصمد لهجمات الممالك المسحية ابتداء من عام ١٢٣١^(٢). وفى هذا القطاع الجنوبى الصغير صمدت مملكة غرناطة الإسلامية قرنين ونصف قرن حتى قضى عليها فى ٢ يناير ١٤٩٢ م.

هكذا أفل نجم الفتح العربى فى الأندلس بعد ثمانمائة سنة. ففى أعقاب الفتح العربى الأول وأبطاله موسى بن نصير، وطارق بن زياد، وعبد العزيز بن موسى، كانت سيادة العرب قد شملت شبه الجزيرة كلها (إسبانيا والبرتغال

(١) د. حسين مؤنس: ص ٢٣١.

(٢) هناك رأى يقول بعد وفاة ابن هود (١٢٣٨ م).

اليوم)، وفي عصرى الإمارة والخلافة، كانت الحدود الشمالية تصل إلى نهر دويرة، ثم تتصل مع حوض نهر إبرو. . وفي عصر ملوك الطوائف انحدرت إلى مجرى نهر آنة. . وفي عصرى المرابطين والموحدين لم تتعد الحدود نهر الوادى الكبير، فيما عدا الناحية الشرقية التى ظلت كاملة تقريباً فى أيدي المسلمين حتى عام ١١١٨ أى إلى سقوط سرقسطة. وفي عصر بنى الأحمر ملوك غرناطة انحصر الأندلس جنوبى نهير من نهيرات الوادى الكبير يسمى نهر شنيل، وعلى نهير من نهيرات هذا الأخير يسمى حدارة (دارو) قامت غرناطة ودخلت فى الأندلس الإسلامى الجزائر المتوسطة فى غربه المعروفة بالبيار، وقد خرجت هذه الجزر عن الأندلس بعد سقوط بلنسية سنة ١٢٣٨ فى أيدي ملوك أراغون واحدة بعد أخرى. .

ثم ضاع الأندلس واستردته إسبانيا المسيحية (١٤٩٢).
